مقدمة

كانت هذه الدراسة أُطروحة لرسالة الدكتوراة التي تقدمتُ بها إلى كلية الآداب بجامعة عين شمس تحت اسم: [شعر أبي نواس بين التقليد والتجديد]. ولما كان شعر أبي نواس قد تناولته الكثير من الدراسات بصور مختلفة، فقد رؤي حتى تحقق هذه الدراسة أبعاداً جديدة لم يتطرق إليها أحد من قبل، أن لا بد من عقد مقارنة ما بين أبي نواس ومعاصريه، أو ما بين تقليد أبي نواس وتجديده وبين تقليد معاصريه وتجديدهم، لذلك فقد تم الاتفاق على أن يكون عنوان الدراسة:

«الثوابت والمستجدات في شعر أبي نواس مع المقارنة بشعراء عصره».

على أني حين اعتزمت دفع هذه الدراسة إلى الطبع وتبينت مدى طولها وضخامة حجمها اتفقت مع «دار البشير» للطباعة والنشر، على جعلها في قسمين، وذلك تيسيراً على القارىء العربي في مثل ظروفنا الصعبة خاصة إن موضوع الدراسة نفسه يساعد على هذا التقسيم من دون إخلال لا بمضمون الرسالة ولا بالنتائج التي توصلت إليها، على أن يكون القسم الأول تحت هذا العنوان:

«حركة الشعر العباسي في مجال التقليد: بين أبي نواس ومعاصريه».

والقسم الثاني: «حركة الشعر العباسي في مجال التجديد بين أبي نواس ومعاصريه».

أما عن الأسباب التي كانت وراء اختياري شعر أبي نواس للدراسة وجعله ركيزة في دراسة شعر العصر؛ عصر أبي نواس، فكثيرة، منها إن شعر أبي نواس يشكل في تاريخ الشعر العربي عامة والشعر العباسي خاصة، ظاهرة متميزة بأبعادها الإنسانية والفنية عمّا سبقها من ظواهر شعرية، وما كان يعاصرها من ظواهر أخرى. فأبو نواس، إن لم يكن الشاعر الأول في كل فن زاوله ـ علماً بأنه زاول جل إن لم يكن كل الفنون الشعرية المعروفة في عصره ـ فإنه كان إما المجلي في بعضها، وإما المبتكر في البعض الآخر، وهكذا أصبح شعر أبي نواس تقليديّه وتجديديّه بما بلغه من الاتساع والشمول من جهة، وبما حققه من الإبداع والتفوق من جهة أخرى، أصبح من الصعب بل المحال أن يقاس به شعر شاعر آخر، ليقفا وحدهما على الركح في صورة مباراة أو مقارنة، فقد نجد الشاعر المقارب لأبي نواس في هذا الفن أو ذاك، ليكون قريعاً له، ولكنا قد نفتقر إلى الشاعر

الذي يطيق الوقوف أمام أبي نواس في جميع فنون شعره، تقليديّها وتجديديّها، ليسد جميع الأبواب التي كان أبو نواس ينفذ منها إلى مدينة الشعر الفسيحة.

ثانياً: إني لم أجد شاعراً ـ كما قلت في ثنايا هذا البحث ـ تتقارب أسباب حياته من معطيات فنه، مثلما كانت حياة أبي نواس وكان فنه، ذلك لما في حياته من طرافة وإيحاء وما في فنه من صدق وحرارة، وهكذا كانت حياة أبي نواس وكان فنه كما صورهما مضطربه في بغداد وفي غيرها من حواضر العراق، وجهين لحقيقة واحدة؛ هي شخصيته العجيبة التي كونتها وشكلتها جملة من العوامل والمؤثرات بدأت منذ ولادته بالأهواز حتى توجتها حياته العريضة في بغداد، ذلك إن حياة أبي نواس هي جزء من تجربته الشعرية، مثلما كانت تجَربته الشعرية وحي تلك الحياة المثيرة.

ولعله من أجل هذا كله كان أبو نواس مثار اهتمام الدارسين وغير الدارسين قديماً وحديثاً كما لم يكن شاعر آخر.

ثالثاً: إن أبا نواس قد تمادى بكل ما آل إليه من تراث السابقين، مضفياً عليه من مزاجه الخاص، ورؤياه المتميزة، جامعاً بين الثوابت التي استمرت والمستجدات التي طرأت في نظام من القسيم المشترك بينهما، مما جعله مقلداً مجدداً، أو مجدداً مقلداً في آن واحد.

وهكذا كانت دراسة أبي نواس سهلة يسيرة، وصعبة عسيرة معاً؛ سهلة يسيرة لكثرة ما بين يدي الدارس من مصادر هذه الدراسة القديمة وما تحت عينيه من مراجع الدراسات الحديثة. وأما الصعوبة فتكمن في نفس السبب الذي هيأ لهذه الدراسة سبيلها الميسرة، وهو ما على دارس أبي نواس من محاولة النفاذ إلى جديد يحققه أو قديم يجدده وهو يجوس وسط هذا الكم الهائل من المصادر والمراجع قديمها وحديثها، وإلاّ كان عمله فضلاً من القول، ونافلة من الجهد الضائع لا ضرورة توجبه ولا حاجة تدعو إليه.

على أن أبا نواس يُعتبر من أكثر شعرائنا الذين شغلوا جمهور الدارسين، ولكن وفرة شعره وتعدد فنونه وتردده بين كثير من الاتجاهات والمذاهب ما بين متبع فيه ومبتدع لا يجعل للكلمة الأخيرة في شعره محلاً.

في ضوء هذه الملاحظات جعلت الكتاب الأول من الدراسة شاملاً للجانب التقليدي من شعر أبي نواس مقارناً بتقليد معاصريه، وقد جعلته في بابين مهدت لهما بدراسة العوامل المؤثرة في حياة الشاعر وشعره من مسيرة حياة ونشأة وثقافة وسياسة وبيئات اجتماعية وثقافية وصلات وعلاقات إنسانية.

أما الباب الأول فقد درست فيه التقليد في شعر أبي نواس جاعلاً إياه في ثلاثة فصول، أفردت الفصل الأول منه للفن التقليدي الأول في الشعر العربي وشعر أبي نواس خاصة وهو المديح، والفصل الثاني للفن التقليدي الثاني وهو شعر الطرد. أما الفصل الثالث فقد تتبعت فيه جملة من الفنون الشعرية التي قلد فيها أبو نواس بغض النظر عن كونها منسوبة إلى الثوابت أو المستجدات؛ إلى التقليد أو التجديد.

أما الباب الثاني فقد أدرته حول المقارنة ما بين تقليد أبي نواس وتقليد معاصريه، وذلك من خلال فن المديح في الفصل الأول باعتباره الفن التقليدي الأول مكتفياً به عن أي فن تقليدي آخر. وفي الفصل الثاني الذي أدرته حول العملية الشعرية ما بين أبي نواس ومعاصريه من خلال الشكل التقليدي أو الإطار العام في جانبيه: اللغة التقليدية وموسيقى الشعر.

ففي اللغة التقليدية تتبعت جملة من مفردات أبي نواس التقليدية وما يقابلها من مفردات شعراء مخضرمي الدولتين والشعراء المعاصرين له.

أما في موسيقى الشعر فقد تتبعت نظام القصيدة والمقطوعة والأوزان الشعرية والتصرف في القافية ما بين أبي نواس وبين شعراء مخضرمي الدولتين والشعراء المعاصرين له.

يتضح من هذا العرض لخطة الدراسة للقسم الأول منها مدى اتساعها وكثرة المصادر القديمة والمراجع الحديثة التي كان عليَّ الإلمام بها.

أما المصادر القديمة فإن ديوان أبي نواس بمختلف رواياته وطبعاته هو النواة التي دار حولها البحث ويتلوه دواوين الشعراء من معاصريه أو مجموعاتهم الشعرية وأيضاً دواوين الشعراء السابقين على أبي نواس من مخضرمي الدولتين أو الإسلاميين أو الجاهليين حين كنت أعود بالظاهرة الشعرية متجاوزاً عصر أبي نواس إلى ما سبقه من عصور ومن جملة تلك الدواوين والمجموعات الشعرية:

- ديوان مسلم بن الوليد.
- شعر دعبل الخزاعي.
- أشعار الخليع «الحسين بن الضحاك».
- ديوان العباس بن الأحنف.
- شعر العتابي.
- أشعار أبي الشيص الخزاعي.
- شعر العكوك.

ـ ديوان ديك الجن الحمصي.
ـ أبو العتاهية، أشعاره وأخباره.
ـ أشعار محمد بن يسير الرياشي.
ـ أشجع السلمي، حياته وشعره.

هذا فيما يتصل بالعباسيين، أما مخضرمو الدولتين فقد رجعت إلى ديوان زعيم المحدثين بشار بن برد وديوان أبي حية النميري، وشعر إبراهيم بن هرمة القرشي، وديوان أبي الهندي.

ومن الإسلاميين: ديوان الأخطل، وديوان جرير، وديوان جميل بثينة، وديوان الوليد بن يزيد.

ومن الجاهليين: دواوين زهير بن أبي سلمى، وامرىء القيس، وعَدي بن زيد، والحطيئة، وأوس بن حجر وغيرهم.

أما عن المصادر القديمة الأخرى فمنها ما يدور حول أبي نواس مباشرة من مثل:

أخبار أبي نواس لابن منظور الجزء الأول والجزء الثاني وهو الجزء الثالث من مختار الأغاني، وأخبار أبي نواس لأبي هفان، وسرقات أبي نواس لمهلهل بن يموت، والفرج والتهاني بأخبار الحسن بن هاني لمؤلف مجهول «وهو مخطوط».

أما ما عدا ذلك من مصادر قديمة فهي كثيرة متعددة الألوان والأنواع من كتب نقد ورواية وأدب وأخبار وتاريخ والتي تعتبر العمود الفقري لكل دارس وباحث في التراث القديم وشهرتها تغني عن ذكرها في هذه المقدمة.

أما المراجع الحديثة فهي كثيرة جداً خاصة إن أبا نواس بالنظر إلى وفرة شعره وتعدد موضوعاته وفنونه وتردده بين مختلف المذاهب والمدارس الشعرية فإنه يكاد يكون قسيماً مشتركاً بين مختلف الظواهر الشعرية وعنصراً أساسياً في كل دراسة أدبية تلم بعصره وربما غير عصره أيضاً.

وبعد، فلعلي في هذه الكلمة قد وفقت ـ من دون تزكية للنفس ـ في تقديم البحث الذي أدرسه والمنهج الذي اتبعتهُ في اختصار مفيد.

وإذا كان لي من كلمة أخيرة أقولها فهي إن كل من سبقني إلى دراسة أبي نواس قد أفدت منه بصورة أو بأخرى سواء اتفقت معه أم اختلفت، فإليهم جميعاً أزجي خالص شكري وعظيم تقديري على أن الذي لا يفوتني ذكره هو الاعتراف بما أولاني الأستاذ المشرف الدكتور مصطفى الشكعة

من المعونة وصادق التوجيه مما جعلني أمضي بهذا البحث إلى الغاية المنشودة والله الموفق والمستعان.

وهذه محاولة أرجو أن تكون صدقت وإلاّ احتسبتها عند الله.

الدكتور حسين خريس